

The concept of Doubt in Ancient Iraq

Assist. Prof . Hussein sayed noor jalal alaaraji

Wasit University
College of education for Humanities,
Department of History
Specialization: Ancient History

hnoor@uowasit.edu.iq

T;07718194444

Absittract

The idea of research is summed up in the concept of doubt, the concept that recorded the moment of questioning and searching for the importance of life and existence for a person, and his rejection of what was found by the ideas and beliefs used by the Ancient Iraqi man, the system of values, morals, social customs, religious beliefs and the place of man in the gods and the other person. The research was divided according to the importance of the concept and its emergence, as well as the chronology of each example, which demonstrated the Doubt of the Iraqis with those ideas and beliefs. Most of the sources of doubt were reflected in the environment and political and social conflicts, and they appeared clearly in literary literature since the third millennium BC, but flourished at the end of the second millennium and the beginning of the first millennium BC, according to most of the texts discovered. The researcher reached important results, the first of which is that the Ancient Iraqi mentality is a Moving and renewed mindset that rejected the values that people are returning, whether religious or social, to reach a conclusion that the revolution on concepts must continue to advance the human being seeking renewal(.

Key words; Doubt / ancient Iraq / ancient literature / glory of the Lord of wisdom.

مفهوم الشك في العراق القديم

أ.م.د. حسين سيد نور جلال الاعرجي
جامعة واسط/ كلية التربية للعلوم الانسانية

الملخص

تتلخص فكرة البحث في مفهوم الشك، ذلك المفهوم الذي سجل لحظة التساؤل والبحث عن حقيقة واهمية الحياة والوجود بالنسبة للإنسان، ورفضه لما وجد من افكار وعقائد درج عليها الانسان العراقي القديم، منظومة القيم والاخلاق والعادات الاجتماعية والعقائد الدينية ومكانة الانسان عند الالهة والانسان الاخر.

قسم البحث حسب اهمية المفهوم وظهوره، فضلا عن التسلسل الزمني لكل مثال اثبت شك العراقيين بتلك الافكار والمعتقدات. تجلت اغلب موارد الشك في البيئته والصراعات السياسية والاجتماعية، وظهرت واضحا في المؤلفات الادبية منذ الالف الثالث قبل الميلاد ولكنها ازدهرت نهاية الالف الثاني وبداية الالف الاول قبل الميلاد بحسب اغلب النصوص المكتشفة.

توصل الباحث الى نتائج مهمة اولها ان العقلية العراقية القديمة عقلية متحركة ومتجددة رفضت القيم التي تعودها الانسان سواء كانت دينية ام اجتماعية ليصل الة نتيجة مفادها ان الثورة على المفاهيم يجب ان يستمر بتقديم الانسان ساعيا الى التجديد.

الكلمات المفتاحية (الشك/ العراق القديم/ الادب القديم/ لامجدن رب الحكمة

المقدمة:

وأرائه. وطبقا لطبيعة مادة البحث استخدمنا منهج التفكير تفكيك النصوص واعادة بناءها بالمنهج البنوي للوصول الى الهياكل الفكرية التي امتلكها العراقي القديم بحيث انتجت منه ثائرا على المفاهيم.

الشك لغة واصطلاحا

شَكَّ : (اسم) و الجمع شُكوك، اما مصدره شَكَّ/ شَكَّ ب/ شَكَّ في. و الشُّكُّ : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الاثبات والنفي ويتوقف عن الحكم(ابن منظور، ١٩٥٥، مادة شك). اما في اللغة الانكليزية فهو (الشعور) بعدم التأكد من شيء ما ، فيما اذا كان صحيحا ام لا (dictionary.cambridge.org/doubt). وإذا كان لديك شك أو شك بشأن شيء ما ، فأنت تشعر بعدم اليقين بشأنه ولا تعرف ما إذا كان صحيحًا أو ممكنًا (Collins dictionary /doubt. lexico (definition/doubt

اما الشك اصطلاحا فهو حالة ذهنية يكون الدماغ فيها مُعلِّقًا بين افتراضين متناقضين أو أكثر، يعجز عن قبول أي منها، وقد يكون هناك شك في المقترحات البديلة حول نفس الموضوع في نفس الوقت؛ ولكن يتم إرفاق الشك بشكل منفصل ودقيق لكل واحد، بين العرض وتناقضه، أي أن كل اقتراح قد يكون أو لا يكون صحيحًا. فالشك يعارض اليقين، أو تمسك العقل باقتراح دون الشك في حقيقته. والشك نوعان إما إيجابي أو سلبي، في الحالة الأولى، فإن الأدلة المؤيدة والمعارضة متوازنة للغاية بحيث تجعل القرار مستحيلًا؛ اما الحالة الثانية، فينشأ الشك من عدم وجود أدلة كافية على أي من الجانبين. وبالتالي من الممكن أن يكون الشك إيجابيًا من جهة وسالبًا من جهة أخرى (سلبي إيجابي أو إيجابي سلبي) ، أي في الحالات التي يمكن فيها الحصول على أدلة من جانب

يتجلى التاريخ الحقيقي في دراسة الافكار التي انتجت الحدث التاريخي، فلا يمكننا دراسة حضارة ما دون الرجوع الى الافكار والعقلية التي صاغت مفاهيم الحياة فيها. ان واحدة من اهم مفاهيم رفعة العقلية العراقية مفهوم الشك، ذلك المفهوم الذي اعلن نقطة تحول حقيقية في الانتقال من العقلية التبعية الى العقلية الحرة التي ترفض ان تمارس الافكار القديمة وتبحث في جدواها.

لقد بداءنا في الالف الثالث نسجل بوادر الشك في العراق القديم لان موارد ذلك المفهوم كانت موجودة من البيئته القاسية والمدمرة الى الصراعات السياسية منذ دويلات المدن السومرية الى سن القوانين بكثر من النصف الثاني للالف الثالث وبداية الالف الثاني وصولا الى اخر العوامل التي تمثلت بالانحلال الحضارة الذي شهدته الحضارة العراقية نهاية الالف الثاني قبل الميلاد، لكن كل تلك الموارد لن تسجل اهمية بقدر العقل الذي استوعب تلك الموارد وسجلها بفكرة ان على الانسان ان يقف ويسجل لحظة شك بكل تلك المفاهيم التي درج عليها الانسان من عقائد دينية وعادات اجتماعية، واعلن رفضها باحثا عن اهميتها وجدواها وصلاحتها في ضل تلك الحياة.

ان مشكلة البحث تكمن في اعتبارية المفاهيم ودخولها مرحلة الشك، سيما ان هناك من عدتها تساؤلًا عابرًا وهي ليست كذلك. لذلك فان فرضية البحث تقوم على وجود مفهوم الشك في النتاج الادبي العراقي القديم وان الانسان هناك له عقلية متحركة ومتجددة قادرة على اعادة النظر بكل مفاهيمه الدينية والاجتماعية وصولا الى هدف البحث المتمثل في ابراز مفاتن العقل العراق القديم وقدرته على اعادة النظر في معتقداته

شعر الناس ان العدالة حق مشروع، لا منة شخصية من احد. غير ان هذا الراي كان لا بد له من ان يناقض نظرة الناس القائمة آنذاك الى الدنيا. فبرزت مشكلات اساسية، كتبرير الموت ومشكلة الانسان الفاضل الذي يقاسي البلايا على الرغم من فضيلته. وهاتان المشكلتان لا تبرزان بنفس الوضوح، غير ان وراء كلتيهما نفس الاحساس العميق بالألم والمأساة (جاكيسون، ١٩٨٠، ص٢٤٥-٢٤٦) والشك.

ولم ترتبط الحياة بتدين عميق في نفس العراقي القديم، لتخلو من الاسباب الداعية للوصول الى الشك الذي جعله الانسان يعيد النظر في معتقداته وآرائه، وتدفعه الى محاولة الاقتراب من مشكلة الوجود وفهمها بالشكل القادر على اشاعة الطمأنينة واليقين في ضميره المعذب. وعلى الرغم من ان الانسان وجد الامان والايمان في السحر وقدراته الخفية لفترة طويلة، الا ان التطور المعرفي الذي حصل لديه ولد اضطرابا واضحا في فكره، سيما عندما اعتقد ان الطبيعة التي هي طوع بنانه قد انفلتت عن ارادته وتعزيمه، اذ اعتقد قبلا بقدرة التعزيم على احداث اثر سيء في أعدائه ومنح احبائه ما يأملون، وازاء ذلك التغيير شعر بمرارة مبدا المساواة لدى الطبيعة بين احبائه اعدائه. لذا وجد الانسان القديم نفسه في وسط كم هائل من الشك والريبة وعدم اليقين، اذ تقطعت به السبل التي ربطته بمرساته القديمة، وبدا تزعزعت ثقته السابقة وامسى في حالة شك من امره (جيمس فيزر، ١٩٧١، ص٢٣٥-٢٣٦).

ومن الحقائق العلمية، ان هزمت الحضارة تتعرض قيمها الاساسية لخطر فقدان اثرها في نفوس ابناءها، ويأخذ التشكك واللامبالاة بتقويض البنين الروحي الذي احتوى الحضارة (جاكيسون، ١٩٨٠، ص٢٥٦). ويمكن اجمال تلك الموارد:

١- الموروث التاريخي: اثر

واحد فقط، وقد يكون الشك إما نظريًا أو عمليًا. Sharpe. (Alfred, Vol. 5, 1909).

إن صحة الإدراك والاستدلال البشريين، بشكل عام، كأدلة للحقيقة الموضوعية كثيرا ما كانت موضع تساؤل. وكان مفهوم الشك الذي أثير على هذا النحو في بعض الأحيان من الطابع المسمى بالمنهجية، أو الوهمية، أو المؤقتة، وأحياناً الواقعية، أو المشككة، على أنها تجسد الاستنتاج القائل بأنه لا يمكن معرفة الحقيقة الموضوعية. فالشك من النوع السابق تمهيدي وضروري لكل استفسار، وبهذا المعنى قال أرسطو أن يكون "الشك الفن الجيد". اذ اشار هاميلتون Hamilton إلى أن الشك، باعتباره تمهيداً للتحقيق الفلسفي هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها إزالة التحيز (Vol.5, 1909 Alfred, Sharpe).

ان لأهمية الشك في ادراك الحقيقة اصبح منهجا للعلوم، اذ اتخذه ديكارت * René Descartes (1994 : Scruton) وعرف باسمه (الشك الديكارتي) وعرف أيضاً بالشك المنهجي أو الشك الكلي. والشك عند ديكارت عملية منهجية للتحقق في (أو الشك) في حقيقة معتقدات المرء، وأصبحت فيما بعد طريقة مميزة في الفلسفة (2012, p.403, Marmysz, J).

وقد عد كثيرون طريقة ديكارت جذر الطريقة العلمية الحديثة، فتم تعميم طريقة الشك إلى حد كبير في الفلسفة الغربية من قبل ديكارت، الذي سعى إلى الشك في حقيقة جميع المعتقدات من أجل تحديد ما يمكن أن يكون متأكدًا من صحته (Marmysz, J, 2012, p.403).

- الموارد التي عززت ظهور الشك

بقيت فكرة الدولة الكونية مستقرة نسبيا طوال الالف الثالث ق.م، وبنفس الوقت تطورت الدولة البشرية الفعلية تطورا كبيرا. فازدادت قوة السلطة المركزية، واشتد جهاز العدالة كفاءة، وجعل العقاب يتلو الجريمة بانتظام متزايد، فتلورت فكرة ان العدالة من حق كل انسان في الالف الثاني ق.م بحيث

* الشك الديكارتي هو شكل من أشكال الشك المنهجي المرتبط بكتابات ومنهجية رينيه ديكارت (٣١ مارس ١٥٩٦ - ١١ فبراير ١٦٥٠،

بين الناس وبين معتقداتهم الدينية، جعلتهم غير قادرين على تعديلها او تصحيحا بل الى رفضها جملة وتفصيلا. فاعتادوا على تلك النصوص التي توجت مقدمة قانون حمورابي وبين ما عاشوه من ظلم في ظل السلطة:

" لأقضي على الخبيث والشر

لكي لا يستعبد القوي الضعيف

ولكي يعلو (العدل) كالشمس فوق الرؤوس السود

ولكي ينير البلاد

من اجل خير البشر" (كلنكل، ١٩٨١، ص١٤٥).

لذا فان من اهم منشئ للشك كثرة التناقضات الفكرية الموجودة بين ما تعلمه العراقيون القدماء في معابدهم من الكهنة وبين الواقع المر الذي لا يعترف بتلك المفاهيم التي درج عليها الناس.

٧- كثرة القوانين والتشريعات، عد العراق القديم كأول واكثر الحضارات في العالم القديم امتلاكا للتشريع القانوني، ابتداء من اصلاحات اوركاجينا وقانون اورنمو وقانون لبت عشتار وقانون انونا وقانون حمورابي (سليمان، ١٩٨٩، ص١-١٠٠).

٨- تأثيرات السكن في المدن جعلت الانسان يفكر بطريقة اخرى، اذ تغيرت اعتباره لنفسه، وبدى له انه يستحق افضل مما وجد في تلك الحياة (الدباغ، ١٩٨٨، ص).

٩- حركية العقلية العراقية التي تساءلت مبكرا للحصول على اجابات عن الخلق واصل الالهة والكون والروح والخلود وموقع الانسان قبال كل تلك الاشياء.

١٠- البيئة الجغرافية (باقر، ٢٠١٢، ص٤١-٤٢) التي احاطت بالإنسان العراقي القديم ساهمت بشكل كبير في انضاج فكرة الشك لديه، لأنها لم تكن يوما في صالحه، اذ اعتبرها اشارة عدم ترحيب من قبل القوى العليا، والا لم خلقته وادخلته في تلك البيئة القاسية.

لذا لم تكن موجة الشك في العراق القديم نابعة فقط من اسباب فكرية محضة، بل كان للواقع البيئي والسياسي المضطرب اثر كبير فيها، فالصراعات السياسية العنيفة بين دويلات

٣- ذلك الموروث العالق في اذهان الناس، من احداث مؤثرة بشكل ملحوظ وما نتج عنها من افكار، في المجتمع (الطائي، ١٩٨١، ص٨٩-١٠٦) ونتاجه، فالإرث الكبير الذي تمتعت به حضارة العراق القديم جعلت من ذلك المجتمع قادر على اغتراف كم هائل من المخزون المعرفي لمراجعة افكاره.

٤- الصراعات السياسية (باقر، ٢٠١٢، ص٣١٦+): عرفت بلاد الرافدين بل جبلت على الصراع السياسي منذ عصر فجر السلالات السومري، وامتد الى الخارج بعد توحيد البلاد، اذ لم تشهد ساحة العراق الهدوء بسبب كثرة الصراعات الخارجية بسبب نقص المواد الاولية او طموح الجوار.

٥- الاضطهاد الاجتماعي: ان انقسام المجتمع العراقي القديم الى طبقات متميزة لم يكن بعيد عن ادراك الانسان العراقي القديم، ودليلا على ذلك هناك نص عرض حال الفقراء الذين يرثى له كما في النص:

" خير للفقير ان يموت من ان يعيش

فاذا حصل على الخبز عدم الملح

وإذا كان لديه الملح عدم الخبز

وإذا كان لديه اللحم فيكون قد فقد الحمل

وإذا كان لديه الحمل فيكون قد فقد اللحم"

ان ادراك العراقيين القدماء ان مجتمعهم منقسم الى طبقات جاء واضحا من خلال اشارته الى الخطر الذي تضمنه ذلك الانقسام اذ قال: " ليس كل عيال الفقراء قانعين مستسلمين على السواء" وهو دليل انهم كانوا على قدر من الوعي الطبقي(الطعان، ١٩٨١، ص٢٠١-٢٠٢).

٦- التناقضات الفكرية او التناشز المعرفي* (سلامة و غباري، ٢٠١٦، ص٣١-٣٣) حدثت، في نهاية الالف الثاني وبداية الالف الاول قبل الميلاد (كان على اشده)، هوة واسعة

* التناشز المعرفي (Cognitive dissonance) حالة من التوتر او الاجهاد العقلي او عدم الراحة التي يعاني منها الفرد الذي يتبنى اثنين او اكثر من المعتقدات او الافكار او القيم المتناقضة في الوقت نفسه، او يواجه بمعلومات جديدة تتعارض مع المعتقدات والافكار والقيم الموجودة لديه.

تلبية تلك الرغبات حماية الناس وتأمين مستقبلهم (الطائي، ٢٠٠٨، ص٦١).

النصوص التي احتوت على مفهوم الشك

تعد حضارة العراق القديم من اكثر الحضارات التي وصلتنا منها نصوص تشمل جميع نواح الحياة، فكانت النصوص الادبية اهم النصوص التي تؤكد وجود مفهوم الشك في العراق القديم* (باقر، ١٩٨٤، ص١٣)، منها ما جاء في قصيدة لأمجدن رب الحكمة* (باقر، ١٩٧٦، ص١٤٧-١٤٨)، فعلى الرغم من ان ملحمة كلكامش كانت ثورة على الموت الا ان هذه القصيدة ثورة على ظلم الدنيا بوجه عام، وهي متصلة بتحقيق الانتقال من العدالة كمنة الى العدالة كحق، ذلك الانتقال الذي عجل ان يكون الانسان محتجا (جاكبسون، ١٩٨٠، ص٢٥١-٢٥٢).

تلك القصيدة التي ارخت لعبد صالح تقي عبد الالهة، ولكنه مع ذلك احاطت به الويلات والنكبات خلافا لما اكده الفكر الديني في ان العبد الصالح المطيع للالهة يجزى على اعماله خيرا وبركة. وامام ذلك التناقض وجد نفسه في دائرة الشك التي تحتاج تفسيراً لذلك التناقض، فاذا رجعا الى القصيدة نجد ان مؤلفها قدم خيارين لذلك التناقض الذي اثار الشكوك في العدل الالهي (كلشكوف، ١٩٩٥، ص١٠٧). فالخيار الاول يمثل العقل اما الثاني فيمثل العاطفة، فالاول يؤكد تعذر تطبيق مقاييس القيم البشرية على اعمال الالهة وسلوكياتها، فالإنسان لا يستطيع فهم حكمة الالهة، فما يستحق الثناء في

* تميز ادب بلاد الرافدين بالسبق الزمني، والاسلوب وطرق التعبير، فضلا عن الموضوعات والمحتوى والصور الفنية المعبرة والاصالة والجرأة، ولا ننسى اهمية الموضوعات التي تناولتها.

* قصيدة بابلية عرفت باللغة البابلية أدل بعلم نيميقي (ludlul bel nemeqe) والمقصود برب الحكمة الاله مردوخ اله بابل، ويرجح ان بطل القصة كان احد الوجهاء او الامراء البابليين ، واطلق عليه الباحثين ايوب البابلي للتشابه بينه وبين قصة ايوب في التوراة، وعرفت ايضا التقى المعذب. وأشارت خصائصها اللغوية الى ان العهد الكشي ١٥٠٠ ق.م كان زمن تدوينها، ويبلغ مجموع ابيات القصيدة زهاء ٥٠٠ بيت دونت على اربعة الواح.

المدن منذ الاف الثالث قبل الميلاد. ففي العراق القديم قد اثرت تلك الصراعات كثيرا في زرع الشك في نفوس ابنائهم، فعلى الرغم من اقتسام الالهة للمدن آنذاك فان ذلك الصراع السياسي والاجتماعي قد اظهر فشل كبير الالهة في وحدة تلك الالهة والذي انعكس على صراع المدن السياسي، وكذلك الظلم الاجتماعي دفع الى ضعف الاعتقاد الديني. يضاف الى ذلك ان بعض الملوك الهوا انفسهم ووضعوا امام اسمائهم شارة الالهية (رشيد، ١٩٨٣، ص١٢-١٠١)، وتلك بحد ذاتها على جراءة عظيمة على الالهة، لتشكل بذلك احد اعراض حالة عميقة من الشك بدأت تراود ثلة من ابناء العراق القديم تدعوهم للاقتراب كثيرا نحو الشعور بمشكلة الوجود التي ينبغي معالجتها وحسمها. وكدليل على عمق حالة الشك حين نجد الانسان بكل ما نعرفه عن تدينه وتعبده، فانه يشيد قصره على انقاض معبد، او انه يحسم نصره على اكتاف بشر، من غير ان يلتفت الى الالهة ليذكرها بفتات مائدته، وهو الذي امتاز بتعداد شكره لها عند كل انتصار. وهناك نص يعزز عميق مرارته وشكته متاوها كما في النص:

"ايها العاقل الحكيم، يا صاحب الذكاء، تأوه من صميم قلبك.

ان قلب الاله بعيد بعد اطباق السماوات الداخلية،

والحكمة صعبة، والناس لا يفهمونها".

وشعور بالعي والجهل وتشكيك بالوجود والقيم كما في النص:

"الانسان ابكم ، لا يعرف شيئا،

البشر، كل الموجودات -ماذا تعرف؟

اكان مقترفا اثما او فاعلا خيرا، انه لا يعرف حتى

ذلك" (النجم، ٢٠٠٣، ص٤١-٤٢).

لقد نشأت الافكار والمعتقدات الدينية لدى الانسان منذ وقت مبكر من حياته، وترسخت في كيانه وعقله، وامست ذات تأثير مباشر في حياته وسلوكه اليومي في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحتى الاقتصادية، فضلا عن التأثير في نظرتة لكل ما احاط به. فقيام حضارة العراق القديم على قاعدة دينية دفعت الكهنة الى التركيز جاهدين لمعرفة و كشف ارادة الالهة وتنفيذ رغباتها ضنا منهم ان

ولا يتجزأ من رصيدهم الادبي (مكاوي، ١٩٩٤، ص ١٤٥-١٤٦).

ان جوهر قصيدة النبي المعذب الذي دوى عاليا حينما قال: من الطبيعي تعذيب الاشرار لانهم نالوا عقاب الالهة؛ ولكن لم ينبغي على الطيبين مشاركتهم المصير؟! لقد حدد هنا مورد الشك! في ان القوى التي تتحكم بالبقاء قد تعاملت مع الانسان الذي قضى حياته بالخير والفضيلة كانه من اسوء الاثمين فيجازى على تقواه جزاء الاشرار(جاكيسون، ١٩٨٠، ص ٢٥٤). كما في النص:

"لمن لم يضع امله في الاله

ولم يذكر الالهة عند تناول الطعام

من لم يخر ساجدا، ولم يعرف الركوع

وشفتاه تسرعان عند التضرع والصلاة

من لم يحترم الاعياد، ولم يحتفل بأيام الالهة

من كان متهاونا ويحتقر المراسيم

من لم يعلم الناس الصلاة والابتهاال

اكل الاضحية دون ذكر الاله

تقاعس تجاه الهته، لم يقدم لها القرابين

كذاك الذي فقد عقله ونسى مولاه

اقسم بالاله متهورا قسما خطيرا" (كلشكوف، ١٩٩٥، ص ١٠٩-١١٠)

١٩٨٠، ص ٢٥٣)، فيسرد اعماله الحسنة وكأنها تساؤل كما في النص:

تلك كانت صفات الاشرار التي سجلها النبي المعذب، ويقول بعدها انني صرت شبيها لهم، اذ انه عاش عيشة الفضيلة والبر قائلا: انه امسى عنوانا للشك في قيمة الحياة(جاكيسون،

"امسيت شبيها لهذا

مع اني لم اهمل الابتهاال والصلوات

الصلاة كانت مرشدتي، واقدم النذور

امتع قلبي بيوم ذكر الاله

نظر الانسان قد يكون محتقرا باعين الالهة، ولكن رغم ذلك التبرير العقلي لحالة العبد الصالح فان القلب ضل متشككا، الا ان القصيدة تعرض الخيار الاخر المتمثل في ان العذاب لا يضل ملازما للعبد الصالح الى الابد، بل مؤقت لأنه امتحان له من الالهة تختبر صبره وتعلقه بالالهة والالتزام بأحكامها وقبول اقدارها (باقر، ١٩٧٦، ص ١٤٩-١٥٠).

الواقع ان بنية النص وصورته هما موضع الاصلالة الادبية فيه. اما مادته فهيد تقليدية، فالنصوص التي حملت تراثيل البابليين او رسالهم الى الالهة معتاد عليها في تراثهم الديني

يوم موكب الالهة- هو الفوز والبركة

الصلاة من اجل الملك، هي فرحتي

والموسيقى التي ترافقها- هي متعتي

علمت الحي كيف يأخذ بتعاليم الالهة

حملت اتباعي على تمجيد اسم الالهة

جعلت مجد الملك كتبجيل الاله

علمت العامة احترام القصر" (كلشكوف، ١٩٩٥، ص ١١٠).

بحسب جاكبسون لم يسعى احد مناقشة حقيقة تلك المشكلة، فعلى الرغم من صعوبة وجود انسان فاضل في مثل ذلك الموقف الصعب، الا ان من الصعب عدم تصديق تلك القضية، لكن الدرس يتجلى في ان ليس في الاستقامة و الفضيلة ما يضمن العافية والسعادة، ويبدو غالبا ان في فلم اذن كل هذا، وكيف يمكن تفسيره ؟ يواصل المعذب.

بودي ان اعرف ما الذي يخلو للاله

ما هو محبذ للإنسان- جريمة امام الاله

ما هو مقرف له-يرضي الاله

من بوسعه ان يدرك ارادة الالهة في السماء؟

من يدرك مشيئة الالهة في الاعماق؟

من اين للمسكين معرفة سبيل الالهة؟ (كلشكوف، ١٩٩٥، ص ١١٠)

افهام البشر، الا بعبارة تلخص موقفه من السر والمفارقة، وتعبر عن جوابه الوحيد عليها حينما قال: " ان كان الاله هو الذي يجرح، فالاله وحده هو الذي يشفي" (مكاوي، ١٩٩٤، ص ١٤٦). وهي عبارة لم نخبرنا بان الشك قد انتهى فيقبت عبارته شرطية.

وهناك قصيدة اخرى يظهر فيها الشك جليا، من خلال حوارية بين صديقين، حول العدالة الالهية مع وجود الشر، اذ دارت تلك الحوارية بين شخص معذب متشكك وبين صديقه، اذ اخذ

ان لتلك الاسئلة جوابين في القصيدة، الاول للعقل الذي صارع مشكلة ذهنية، والآخر للقلب الذي جاشت عواطفه لمراى معاناة النبي من حيف واساءة. ان جواب العقل انكر امكانية تطبيق الموازين البشرية على الالهة، لان الانسان اصغر من ان يحكم على القضايا الالهية، فضلا عن ضيق نظرتة، ولا حق له في مجابهة قيم الالهة بالقيم الانسانية) جاكبسون، ١٩٨٠، ص ٢٥٤-٢٥٥).

لقد عدت القصيدة رحلة الشك، يبحث فيها المعذب عن السر الغامض الذي يكتنف الحرية والارادة الالهية، ويتعالى على

المعذب دور المشكك والساخر ووصل تشككه الى التجديف والكفر في بعض المواطن (باقر، ١٩٧٦، ص ١٥١).

تتجلى مشكلة عذاب الابرياء في تلك الحوارية بصورة اوسع من اي مؤلف سومري او بابلي اخر، فهو مختلف عن القصيدة السابقة من خلال ان عرض الاحداث من وجهة نظر واحدة يتنحيان جانبا في (التقي المعذب) ليحل محلها الحوار

المضادة (كلشكوف، ١٩٩٥، ص ١١١).

فييدئ المعذب فيقول:

"اين الناصح الذي اشكو اليه ما اقاويه من عذاب. اراني قد انتهى

امري وتسلط علي الشقاء. فحين كنت لا ازال طفلا اختطف القدر

ابي وذهبت امي الى ارض اللاعودة منها، وتركني ابي وامي و لا

من يعيلني ويرعاني".

فيجيبه الصديق: ان ما قلته محزن، وانك وجهت فكرك الى الشر والبؤس، اعلم يا صديقي ان من استجار بالله وجد الحماية والطمأنينة، لكن المعذب فيقول:

"لقد خذلني التوفيق وذهبت عني الراحة والطمأنينة. وهنت قواي، وفقدت

النعيم والخير، واظلم وجهي من كثرة بكائي وشكاتي. تضاءلت

غلال حقلي، فكيف سأنال سعادتني؟

ما اشبه فكرك بالريح الشمالية. انه نسيم عليل للناس. فدعني

اقول لك كلمة واحدة: كثيرون هم الذين لا يلتزمون بعبادة الالهة ولكنهم

ساروا في طريق الفلاح* (كلشكوف، ١٩٩٥، ص ١١٤)، في حين ان العابدين الاتقياء فقراء معدومون"

وانا في ايام شبابي كنت اسير وفق ارادة الهي، وتعلقت بالهتي في

التضرع والصلاة. ولكني كنت انوء بجر النير في عمل السخرة،

ولا نفع منه، لقد كتب علي الهي الفقر بدل الغنى"

واستمر المعذب في التماذي بشكوكه حتى يبلغ فيها درجة الكفر فيقول:

لن انصاع لأوامر الالهة، وسوف ادوس بقدمي على شعائرها... سأهرب

* يبدو ان المعذب رأى الظلم والشر قد كمنوا في نفوس الناس حين يتصرفون (او يرغمون على التصرف) بالشكل الذي لا يتناسب ومكانة كل واحد منهم. فقد نشأ في المجتمع التقليدي نظام صارم للأدوار الاجتماعية، حدد سلوك كل فرد حسب موقعه في ذلك المجتمع. والدور الاجتماعي او الديني الذي يؤديه يقرر المحتوى الكامل لكل تصرفاته، تاركا مجالا ضيقا للمبادرات الذاتية والحالات الشاذة. فيخضع سلوك الناس ومظاهرهم في ذلك المجتمع الى قانونية صارمة: اذ يمكن التمييز بسهولة من خلال المظهر الخارجي بين العبد البابلي والكاهن من أي مرتبة وتمييز المرأة المتروجة من العانس

الى اماكن بعيدة واشحذ من بيت الى بيت"

فوفها وانظر الى جماجم الماضيين والمتأخرين، فأبهم
الاشرار وايهم

الاشرار وايهم الصالحون!.

فهنا يتساوى فعل الخير والشر، ولن يذكرهما احد في
المستقبل، ولا علم بمن فعل الخير ومن فعل الشر بين
الغابرين، كلهم منسي في مدن منسية(جاكيسون، ١٩٨٠،
ص٢٥٨).

يمكن ان نتلمس واحدًا من اسباب ذلك الشك في النص السابق
"اعل فوق الاطلاع وتمش فوقها وانظر فأبهم الاشرار وايهم
الصالحون، فعلى الرغم من كون النص يؤشر تصويرا فنيا
للانحلال الحضاري والاجتماعي في بلاد الرافدين في
ادوارها الاخيرة، نلاحظ فيه جانبًا من المعاناة الفكرية للعراقي
القديم المتولدة في فهم الوجود حوله سيما مبدا التشبيه*
(الحماداني، شحيلات، ٢٠١٢، ص٢٣٤) ومبدا التشخيص
للطبيعية (النجم، ٢٠٠٣، ص٤١).

وعندما نتابع الحوار نجد تجديدًا منافيًا لما تعود عليه العراقي
القديم كما في النص:

السيد: لا يا عبد لن اقرب

العبد: لا تقرب يا سيدي، لا تقرب! تستطيع ان تعلم الاله ان
يركض

وراءك كالكلب عندما يحتاج اليك لتقيم شعائره" (باقر،
١٩٧٦، ص١٥٤-١٥٦).

وهكذا يستمر هذا الحوار بين المتشكك والمتدين الذي حاول
عبثًا تبرير عدل الالهة (باقر، ١٩٧٦، ص١٥١-١٥٣).

الجدير بالذكر ان مشكلة عذاب الابرياء في قصيدة النبي
المعذب تحولت على لسان المعذب (القصيدة الثانية) من
مشكلة شخصية بحتة الى مشكلة على المستوى الاجتماعي، اذ
ما عاد الامر محض حالة شاذة نادرة، بل اصبح امرا
اعتياديًا، وكانت تشك في الدين و التنظيم الاجتماعي لان
منظومة الادوار الاجتماعية في بلاد الرافدين دقيقة البنية
مدعومة بالمشيئة الالهية(كلشكوف، ١٩٩٥، ص١١٤).

ان تشكك المعذب جاء بسبب ان كل شيء معكوس وليس كما
ينبغي ان يكون: فالأتقياء معدمون والاشرار يتقدمون، والاله
لا يقف بوجه الشيطان. وهكذا فان المعذب يتفق مع القيم
فيؤكد ان الالهة هي التي جعلت الناس ظالمين وان مشيئتهم
عصية على الادراك(كلشكوف، ١٩٩٥، ص١١٦).

وهناك حوارية اخرى تؤسس لمنهج الشك في الفكر الرافديني
دارت بين سيد وعبد، اذ تكاد تنفرد في اصالتها وجراتها في
الشك بكل شيء ساد حينها مثل القيم الاجتماعية والمعتقدات
الدينية بسخرية لاذعة تثير الدهشة. ففي تلك الحوارية يطلب
السيد من العبد: "احضر لي ماء لأغسل يدي، اريد ان اقدم
القرابين لإلهي

العبد: افعل ذلك يا سيدي، افعل! فان من قدم القرابين لإلهه
نال

السعادة واطاف دينا على دين.

السيد: اريد ان اساعد بلادي

العبد: افعل ذلك يا سيدي، فان يساعد بلاده توضع حسناته في
كف

الاله "مردوخ"

السيد: لا يا عبد، لن افعل ما يساعد بلادي

العبد: لا تفعل يا سيدي، لا تفعل! اعل فوق الاطلاع القديمة
وتمش

* التشبيه يعني انهم نظروا الى علل الحوادث من وجهة نظر من يحدثها
وليس كيف تحدث؟ او لماذا تحدث؟ اذ حكموا على الحوادث بمبدأ التمثيل
والقياس اكثر من الاستدلال والاستنتاج، كما في السحر والعرافة
وتصنيفهم للأشياء على اساس التشابه الظاهري كتصورهم للسماء على
هيئة الارض، والارض على هيئة السماء، حتى انهم عدوا السماء وكأنها
مملكة تحكم فيها الالهة بمراتب ودرجات متفاوتة، ويجتمعون في مجالس
شورى ويتخذون القرارات المهمة على غرار المجتمع البشري في بلاد
الرافدين.

ان ادق عنقي وادق عنقك

وتسقط كلانا في النهر- ذلك هو الخير"

وإذا كان كل ما في الحياة باطلا، لم يبق الا الموت جميلا، فيجيب العبد بقول قديم عبر به عن صبره واستسلامه الفلسفي:

"هل ثمة من طال قامة فيلغ السماء بيديه؟

وهل ثمة من اتسع منكبا فاحتوى الارض بذراعيه؟"

فاذا كان من العبث البحث عن خير مطلق، فلنستسلم ونقلع عن البحث، انه نفي للقيم كلها ونفي وجود الحياة الفاضلة (جاكيسون، ١٩٨٠، ص٢٥٨-٢٥٩).

ان وجود اجابتين لكل تساؤل ينفي كمال الاشياء فما من شيء (جاكيسون، ١٩٨٠، ص٢٥٦) الا ويعوزه الخير، وليس هناك شيء جدير باهتمام الانسان، سواء بطلب ا

٧- النتاج الادبي مثل عنوان الافصح عن مفهوم الشك الذي انتقل من ملحمة كلكامش التي تعد رفض للموت مرورا بقصة التقي المعذب بالحوار المتشكك مع الهه وصولا الى حوارية المعذب وصديقه وانتهاءً بحوارية العبد والسيد.

٨- نعتقد ان الانعتاق الفكري الذي وصل من النتاج الادبي شمل مساحة من الناس في العراق القديم لا باس بها.

٩- تطور طرح الشك في العراق القديم من الثورة على الموت اولا، وصولا الى طرح الشك بالمعتقدات والاعراف الاجتماعية على المستوى الشخصي، الى الانتقال لمعالجة حالة اجتماعية عامة وليس خاص بعد ان انتقل من الحديث مع النفس لمبتنيات فكرية لشخص واحد الى الانتقال الى حوارية تأخذ الحقيقة من موقعين كل واحد ترى من زاوية مختلفة.

المصادر:

- ١- ابن منظور، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري (ت٧١١ هـ)، لسان العرب بيروت، ١٩٥٥.
- ٢- الدباغ، تقي، من القرية الى المدينة الاولى، كتاب المدينة والمدنية، ج١، بغداد، ١٩٨٨.

ان تلك الحوارية طرحت حرية الإرادة بين الإيمان والشك في مسؤولية الالهة في اسعاد البشر او شقائهم، فبعد ان سجل امتنانه للالهة لأنها انقذته نجده في الابيات الاخيرة يصفها بالكلاب، اننا نسمع صوت حيرته وشكه التي لم يجد منها منفذا في طوره الفكري الذي بلغه آنذاك. اننا وان حاولنا فهم تداعياته في تلك الحوارات لوجدنا شكاً عميقاً استشعره الانسان ازاء الكم الهائل من المعتقدات، والتي امست صعبة اليقين بها تماما، ففي النص السابق يمكن عدها اوضح حالة شك انسانية مكتوبة، فلنلاحظ التعارض الواضح والمبرر لفعلين السيد والعبد(النجم، ٢٠٠٣، ص٤١).

وينتهي الجدل الى خلاصة مفادها ليس ما هو حقا خير فالكمل باطل كما في النص:

" اتفق معي، ايها العبد! اجل، سيدي، اجل"

ما الخير اذن؟

لتقرب من الحاكم، او لذائذ الطعام، والقيام بالغزوات، وعيشة الثورة والتمرد، وغيرها.

الاستنتاجات

- ١- ان مفهوم الشك يسجل علامة مضيئة في تاريخ الفكر البشري سيما الفكر العراقي القديم.
- ٢- ان تاريخ الشك في العراق القديم سجل سبقا عن الحضارات الاخرى بكثير سيما ان تلك الاسبقية ليس متنازع عليها فهي مثبتة بالنصوص التي لا تقبل الانكار.
- ٣- ان الشك يؤسس لمعرفة كمية المعاناة الفكرية التي كابدها العراقي القديم في الوصول الى حقيقة الحياة والوجود وماهيته.
- ٤- تعددت موارد الشك في العراق القديم توجتها العقلية العراقية القديمة التي استجابت لتلك الموارد.
- ٥- لم يقتصر الشك في العقائد الدينية بل تعدى الى العادات والاعراف الاجتماعية.
- ٦- ان الشك اوصل الانسان العراقي القديم الى فكره مفادها وجوب مراجعة الافكار ومناقشة صلاحيتها للحياة، فمنها ما لم يعد صالحا يجب تغييره ومنها ما يحتاج الى فهم جديد لكي يستمر.

- ٣- سلامة، ثريا عبد الحميد، وغباري، ثائر أحمد، التنافر المعرفي والمسؤولية الاجتماعية لدى طلبة الجامعة الهاشمية في ضوء متغيري النوع الاجتماعي والكلية، المجلة الاردنية في العلوم التربوية، مج ١٢، عدد ١، ٢٠١٦.
- ٤- جاكبسون، ثوركيلد، ما قبل الفلسفة الانسان في مغامرته الفكرية الاولى، تر: جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٠.
- ٥- فريزر، جيمس، الغصن الذهبي، تر: احمد ابو زيد، القاهرة، ١٩٧١.
- ٦- الطائي، سمير، العنف السياسي في بلاد الرافدين، دراسة في جذوره التاريخية، ج١، دار دجلة، عمان ٢٠٠٨.
- ٧- باقر، طه، مقدمة في ادب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦.
- ٨- باقر، طه، ملحمة كلكامش، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤.
- ٩- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، ط٢، دار الوراق للنشر المحدودة، دمشق، ٢٠١٢.
- ١٠- سليمان، عامر، القانون في العراق القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩.
- ١١- الطعان، عبد الرضا، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشد للنشر، بغداد، ١٩٨١.
- ١٢- مكاي، عبد الغفار، جذور الاستبداد، سلسلة كتب عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤.
- ١٣- الحمداني، عبد العزيز الياس، و شحيلات، علي، مختصر تاريخ العراق، تاريخ العراق القديم، ج٦، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢.
- ١٤- رشيد، فوزي، السياسة والدين في العراق القديم، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣.
- ١٥- كلشكوف، الحياة الروحية في بابل: الانسان- المصير- الزمن ، تر: عدنان عاكف، دار المدى للثقافة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٩٥.
- ١٦- النجم، محمد حسين، فلسفة الوجود في الفكر الرافديني القديم واثرها عند اليونان، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٣.
- ١٧- كريم، مصطفى فاضل، تاريخ القانون في المجتمعات القديمة، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، العدد ٢، مج ٣.
- ١٨- كلنكل، هورست، حمورابي ملك بابل وعصره، تر: غازي شريف، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨١.
- 19- Scruton, R., Modern Philosophy: An Introduction and Survey (London: Penguin Books), 1994
- 20- <https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/doubt>.
- 21- <https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/doubt>:
- 22- <https://www.lexico.com/definition/doubt>.
- 23- Marmysz, J., The Path of Philosophy: Truth, Wonder, and Distress (Boston: Wadsworth, 2012).
- 24- Sharpe, Alfred. "Doubt". The Catholic Encyclopedia. Vol. 5. New York. Robert Appleton Company, 1909
- 25- Stephen Langdon, The epic of Gilgamish, Published by The university museum, Philadelphia, 1917 .